

﴿أَيُّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ
وَأِنْ تُصِبُّهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبُّهُمْ
سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ
هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 78]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا قَرَّرَ بَيَانُ اللَّهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، أَنَّ الدُّنْيَا مَتَاعٌ زَائِلٌ، وَأَنَّ
الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْخَيْرِ وَالْقَرَارِ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ خَشِيَ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ
غَيْرُهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْقِتَالَ خَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ، جَاءَ بَيَانُ اللَّهِ هُنَا فِي
هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، لِيَضَعَ النُّقَاطَ عَلَى الْحُرُوفِ فِي شَأْنِ الْمَوْتِ الَّذِي
يَغْشَى النَّاسَ جَمِيعًا أَيْنَمَا كَانُوا، إِضَافَةً إِلَى حَقِيقَةِ أُخْرَى، وَهِيَ أَنَّ
الْحَسَنَةَ وَالسَّيِّئَةَ بَخَلَ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَا عَلَى الْإِنْسَانِ إِلَّا أَنْ يَفْقَهُ حَدِيثَ
الْقُرْآنِ فِي كُلِّ مَا يُسَطِّرُهُ بَيَانُهُ الْجَلِيلُ مِنْ حَقَائِقِ وَأَحْكَامِ هَذَا الدِّينِ
الْعَظِيمِ، وَمَنْ غَابَ عَنْهُ ذَلِكَ، فَهُوَ مِنَ الَّذِينَ لَا يَفْقَهُونَ حَدِيثًا.

لا رجاء في
الدُّنْيَا، ولا فوت
في الآخرة، وكلُّ
طارئ فمن الله
بقضاء وقدر

❁ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾: مِنْ دَرَكٍ، وَالْإِدْرَاكُ: اللَّحُوقُ. يُقَالُ:
مَشَيْتُ حَتَّى أَدْرَكَتُهُ، وَعَشْتُ حَتَّى أَدْرَكَتْ زَمَانَهُ. وَأَدْرَكَتُهُ بَبَصْرِي،
أَيَّ رَأْيَتِهِ. وَأَدْرَكَ الْغَلَامُ وَأَدْرَكَ الثَّمَرُ، أَيَّ بَلَغَ⁽¹⁾، يُقَالُ: أَدْرَكَتُ
الشَّيْءَ أَدْرَكَهُ إِدْرَاكًا، إِذَا بَلَغْتَهُ. وَتَدَارَكَ الْقَوْمُ: لَحِقَ آخِرُهُمْ أَوَّلُهُمْ،
فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ أَدْرَكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾⁽²⁾ [النمل: 66] فَهُوَ مِنْ
هَذَا؛ لِأَنَّ عِلْمَهُمْ أَدْرَكَهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَلَمْ يَنْفَعَهُمْ⁽³⁾، وَرَجُلٌ دَرَاكَ:
مَدْرَكَ لَمَّا يَرُومُهُ. قَالَتِ الْخَنَسَاءُ:

(1) الجوهري، الصحاح: (درك).

(2) على قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب وأبي جعفر، ينظر: ابن الجزري، النشر: 339/2.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (درك).

اذْهَبْ فَلَا يُبْعِدَنَّكَ اللَّهُ مِنْ رَجُلٍ *** دَرَاكِ ضَيْمٍ وَطَلَابٍ بِأَوْتَارٍ⁽¹⁾

(2) ﴿بُرُوجٌ﴾: (البُرُوجُ): مَنْ الفعل (بَرَجَ)، والباء والراء والجيم أصلان: أحدهما: البُرُوزُ والظُّهورُ، والآخرُ: الوَزْرُ والملْجَأُ، فَمِنْ الأوَّلِ البَرَجُ: وهو سَعَةُ العين في شِدَّةِ سوادِ سودِها وشِدَّةِ بياضِ بياضِها، ومنه: التَّبَرُّجُ، وهو إظهارُ المرأةِ محاسنها، والأصل الثاني: وهو البَرَجُ، واحدُ بُرُوجِ السَّمَاءِ، وأصلُ البُرُوجِ الحصُونُ والقصورُ، كما في الآية التي معنا: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾، ويُقالُ: ثوبٌ مُبَرَّجٌ: إذا كان عليه صُورُ البُرُوجِ⁽²⁾. والمعنى المراد بالآية: الحصون والقصور الظاهرة والبارزة، وهي كذلك ملجأ لمن يسكنها أو يأوي إليها.

(3) ﴿مُشَيَّدَةٌ﴾: (شَيَدَ) الشَّيْنُ والِبَاءُ والدَّالُّ أصلٌ واحدٌ، يُدُلُّ على رفعِ الشَّيْءِ، يُقالُ: شَدْتُ القَصْرَ أَشِيدُهُ شَيْدًا، وهو قَصْرٌ مُشَيَّدٌ، أي: مَعْمُولٌ بالشَّيْدِ، وَسُمِّيَ شَيْدًا؛ لَأَنَّ به يُرْفَعُ البناءُ، يُقالُ: قَصْرٌ مُشَيَّدٌ، أي: مُطَوَّلٌ⁽³⁾، يُقالُ: أَشَدْتُ البَنِيانَ فَهُوَ مُشَادٌ، وشَيْدَتَهُ فَهُوَ مُشَيَّدٌ، إذا رَفَعْتَهُ وأَطْلَتَهُ، وَأَمَّا البناءُ المُشَيَّدُ، فَمَنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾⁽⁴⁾ [الحج: 45]، فَإِنَّهُ من غير المُشَيَّدِ، هَذَا هُوَ الَّذِي بُنِيَ بالشَّيْدِ - وَهُوَ الجِصَّ -⁽⁴⁾، قال الشاعر:

شَادَهُ مَرَمَرًا وَجَلَّلَهُ كِلْسًا *** فَلِلطَّيْرِ فِي ذُرَاهُ وَكُورٌ⁽⁵⁾

(4) ﴿وَأِنْ تُصِيبْهُمْ﴾: صاب: يَصِيبُ، مُصِيبَةٌ، وَمَصُوبَةٌ، وَمُصَابَةٌ، والجمعُ: مَصَابِيٌ، وَمَصَاوِبُ، وهو الأمرُ المكروهُ يَنْزِلُ بالإنسان. ويُقالُ: صَابَ السَّهْمُ من باب: باعَ، لغةً في (أصابَ)⁽⁶⁾. والمصيبةُ: ما يلائمُ الطَّبْعَ كالموتِ ونحوه⁽⁷⁾. وهي اسمٌ لكلِّ ما يَسُوءُ الإنسانَ⁽⁸⁾، والمصيبةُ تضادُّ النِّعْمَةَ، فهي يعبرُ بها عن كلِّ ما يسوءُ من الطَّواريءِ، ممَّا ينال الإنسانَ في

(1) الزمخشري، أساس البلاغة: (درك).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برج).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شيد).

(4) الهروي، غريب الحديث: (شيد).

(5) الزبيدي، تاج العروس: (شيد).

(6) ابن منظور، لسان العرب: (صوب).

(7) الجرجاني، التعريفات: 1/278.

(8) اللناوي، التعاريف: 1/660.

نفسه وبدنه وأحواله، وهي من الألفاظ التي تصلح للحالتين، كما في قوله تعالى: ﴿وَأِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: 78]، فاستعمل البيان القرآني الفعل ﴿تُصِيبْهُمْ﴾ مع الحسنة والسيئة، بنفس الصيغة⁽¹⁾.

(5) ﴿يَفْقَهُونَ﴾: من (فَقَهَ): الفاء والقاف والهاء، أصل واحد صحيح، يدلُّ على إدراك الشيء والعلم به، تقول: فَقِهُتُ الحديثَ أَفْقَهه، وكلُّ علم بشيء فهو فِقْهٌ، ثمَّ اختَصَّ بذلك علمُ الشريعة، فقلَّ لكلِّ عالمٍ بالحلال والحرام: فِقْيُهُ. وَأَفْقَهْتَكَ الشَّيْءَ: إِذَا بَيَّنَّتهُ لَكَ⁽²⁾، والفقه: العلم في الدين. يقال: فقه الرجلُ يَفْقُهه فِقْهًا، فهو فقيه، وفِقْهه يَفْقُهه فِقْهًا إِذَا فهِمَ، وَأَفْقَهْتَه: بَيَّنَّتهُ لَهُ، وَالتَّفَقَّهَ: تَعَلَّمَ الفقه⁽³⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

يخاطبُ الله ﷻ عباده، فيقول لهم: إِنَّكُمْ صَائِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ لَا مُحَالَةَ، وَلَا يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ، حَتَّىٰ لَوْ كُنْتُمْ فِي قُصُورٍ مَنِيعةٍ، وَمَنَازِلَ مَشِيدَةٍ رَفِيعَةٍ⁽⁴⁾، وَفِي هَذَا تَرْغِيبٌ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَلَا يَنْفَعُ الْقَاعِدِينَ عَنِ الْجِهَادِ قُعُودُهُمْ، وَلَا يَزِيدُ فِي أَجْلِهِمْ تَرْكُهُمْ لِلْجِهَادِ، ثُمَّ يُخَبِّرُ اللَّهُ عَنِ الْمَعَارِضِينَ لِرَسُولِهِ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا جَاءَهُمْ خَصْبٌ وَكَثُرَ أَمْوَالُ وَأَوْلَادُ، قَالُوا: هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَإِذَا أَصَابَهُمْ جَدْبٌ، وَفَقْرٌ، وَمَرَضٌ، وَمَوْتُ أَوْلَادٍ وَأَحْبَابٍ، قَالُوا: هَذَا بِسَبَبِ مَا جِئْنَا بِهِ يَا مُحَمَّدٌ ﷺ، يَطَّيِّرُونَ بِهِ ﷻ⁽⁵⁾، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجِيبُهُمْ فِي بَيَانِهِ الْجَلِيلِ، فيقول لهم: إِنَّ الْحَسَنَةَ وَالسَّيِّئَةَ، وَالْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِقَضَاءِ

لا منجى من
القدر مهما
كانت الحصون،
وإذا أراد الله فلا
فرار من النون

(1) الزبيدي، تاج العروس: (حسن).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فقه).

(3) الخليل، العين: (فقه).

(4) النحاس، معاني القرآن: 2/134.

(5) هذا ما كان عليه المنافقون واليهود، وما قالوه لما قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ للدينه، ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 5/174، وابن أبي حاتم،

تفسير القرآن العظيم: 3/1008.

اللَّهُ وَقَدَرَهُ، وَيُؤَيِّجُهُمْ عَلَى عَدَمِ فَهْمِهِمْ وَإِدْرَاكِهِمْ لِحَقَائِقِ تِلْكَ الْأُمُورِ الَّتِي مَا كَانَتْ لَوْ لَا كُفْرُهُمْ بِاللَّهِ، وَإِعْرَاضُهُمْ عَنْ شَرِيعَتِهِ⁽¹⁾.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

تلوين الخطاب بالالتفات، وأثره في جلاء المعنى ودقّة الدلالات:

كلامٌ مبتدأً مَسْوقٌ مِنْ قَبْلِهِ تَعَالَى، بِطَرِيقِ تَلْوِينِ الْخَطَابِ، وَصَرَفِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُخَاطَبِينَ؛ بِطَرِيقِ الْإِلْتِفَاتِ، اعْتِنَاءً بِإِلْزَامِهِمْ إِثْرَ بَيَانِ حَقَارَةِ الدُّنْيَا، وَعُلُوِّ شَأْنِ الْآخِرَةِ بِوَاسِطَتِهِ⁽²⁾، وَهُوَ يَخَاطِبُهُمْ بِقَوْلِهِ: "أَيْنَمَا تَكُونُوا فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، يَدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ الَّذِي لِأَجَلِهِ تَكْرَهُونَ الْقِتَالَ، زَعَمًا مِنْكُمْ أَنَّهُ مِنْ مِظَانِهِ، وَتُحِبُّونَ الْقَعُودَ عَنْهُ عَلَى زَعَمٍ أَنَّهُ مَنَجَاةٌ مِنْهُ"⁽³⁾، وَ"لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّ الْحَذَرَ لَا يَغْنِي مِنَ الْقَدَرِ، أَتَبَعَ ذَلِكَ بِالْإِلْتِفَاتِ إِلَى الْغِيْبَةِ، إِعْرَاضًا عَنْ خِطَابِهِمْ بِبَعْضِ غَضَبٍ؛ لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا إِلَى الْإِخْلَالِ بِتَعْظِيمِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى، الْإِخْلَالِ بِالْأَدَبِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ الَّذِي أَرْسَلَهُ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَقَالَ: فَإِنْ أَصَابْتَهُمْ حَسَنَةٌ، أَيْ شَيْءٌ يَعْجِبُهُمْ، وَيَحْسُنُ وَقَعُهُ عِنْدَهُمْ، مِنْ أَيْ شَيْءٍ كَانَ، قَالُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَيْ الَّذِي لَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَإِنْ أَصَابْتَهُمْ سَيِّئَةٌ، مِمَّا يَسُوؤُهُمْ، قَالُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ، أَيْ مِنْ جِهَةِ حُلُولِكَ فِي هَذَا الْبَلَدِ، تَطْيِيرًا بِكَ. قَالَ الْبِقَاعِيُّ: "وَلَمَّا كَانَ هَذَا أَمْرًا فَادِحًا، وَلِلْفُؤَادِ مُحَرِّقًا وَقَادِحًا، سَهَّلَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ كُلُّ﴾ أَيَّ مَنْ السَّيِّئَةِ وَالْحَسَنَةِ فِي الْحَقِيقَةِ دُنْيَوِيَّةٌ كَانَتْ أَوْ أُخْرَوِيَّةٌ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾"⁽⁴⁾.

أسلوب الشرط، وأهميته في قوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾:

﴿أَيْنَمَا﴾ اسم شرط جازم في محل نصب على الظرفية المكانية

تأكيد أهمية
الآخرة، وأن
الموت حقيقة
لازمة لازمة

لن ينقص الأجل
خوض الحروب،
ولا معالجة
الخطوب

(1) السَّعْدِيُّ، تَبْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، ص: 146 - 147.

(2) أَبُو الشَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 2/204.

(3) أَبُو الشَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 2/204.

(4) الْبِقَاعِيُّ، نِظْمُ الذَّرَرِ: 5/335.

متعلّق بمحذوف، خبر تكونوا المقدم إذا كانت ناقصة أو بجواب الشرط إذا كانت تامة، وتكونوا فعل الشرط، والواو فاعل، أو اسم تكونوا، و﴿يَذَرِكُكُمْ الْمَوْتُ﴾ جواب الشرط⁽¹⁾، و(ما) يكثر دخولها على (أين) الشرطية، لتقوي معناها في الشرط، ويجوز حذفها⁽²⁾، ويمكن أن يكون قوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾ قد وقع موقعه (أينما كنتم)، أو على أنه كلامٌ مبتدأ، و﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾ متّصلٌ بـ﴿وَلَا تُظَلَمُونَ﴾، أي: لا تُقَصِّصُونَ شيئاً ممّا كُتِبَ من آجالكم أينما تكونوا في ملاحم الحروب، ومعارك الخطوب، وفي لفظ (الإدراك) إشعارٌ بأنهم في الهرب من الموت، وهو مُجدّد في طلبهم⁽³⁾.

الوجوه المحتملة لأداة الشرط (لو)، في قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾:

الأول: أداة شرط، وجوابها محذوف، دلّ عليه ما قبله؛ أي: ولو كنتم في بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ يَذَرِكُكُمْ الموت، والجملة معطوفة على جملة مثلها؛ أي: لو لم تكونوا في بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ، ولو كنتم في بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ. وقد اطرّد حذفها لدلالة المذكور عليها دلالة واضحة، فإنّ الشيء إذا تحقّق عند وجود المانع، فلاّ يتحقّق عند عَدَمِهِ أولى، و(لو) فلاّ يتحقّق عند عَدَمِهِ أولى⁽⁴⁾، والثاني: أنّ (لو) بمعنى (إن)؛ أي: وإن كنتم⁽⁵⁾.

دلالة الابتداء وحكاية كلام الغائب عن المخاطب للمخاطب:

هذا كلامٌ مبتدأ، جيء به عقيب ما حكى عن المسلمين لما بينهما من المناسبة في اشتمالهما على إسناد ما يكرهونه إلى بعض الأمور، وكرهتهم له بسبب ذلك، والضّمير يعود إلى المناققين واليهود، وذلك أنّهم قالوا: لما قدّم رسول الله ﷺ المدينة: "ما زلنا

حدوث الموت
مع وجود
المانع، دليل على
حدوثه مع عدم
وجود المانع

معاناة الرّسول
بالتّشاؤم به،
وإسناد ما
يكرهون له

(1) درويش: إعراب القرآن وبيانه: 5/335.

(2) العكبري، التبيان: 1/187.

(3) أبو الشعود، إرشاد العقل السليم: 2/204.

(4) أبو الشعود، إرشاد العقل السليم: 1/739.

(5) العكبري، التبيان: 1/187.

نَعْرِفُ النَّقْصَ فِي ثَمَارِنَا وَمَزَارِعِنَا مِنْذُ قَدِيمٍ عَلَيْنَا هَذَا الرَّجُلُ وَأَصْحَابُهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، يَعْنِي: الْيَهُودَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿حَسَنَةً﴾ أَي: خَصَبٌ، وَرَيْفٌ، وَرُخْصٌ فِي السَّعْرِ ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لَنَا، ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أَي: جَدْبٌ، وَغَلَاءُ الْأَسْعَارِ، وَقَحْطُ الْمَطَرِ ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أَي: شَوْمٌ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَصْحَابُهُ ⁽¹⁾، وَالْإِثْيَانُ بِكَافِ الْخُطَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿عِنْدِكَ﴾، مِنْ قَبِيلِ حِكَايَةِ كَلَامِهِمْ بِحَاصِلِ مَعْنَاهُ، عَلَى حَسَبِ مَقَامِ الْحَاكِي وَالْمُحْكِي لَهُ، وَهُوَ وَجْهُ مَطْرُوقٍ فِي حِكَايَةِ كَلَامِ الْغَائِبِ عَنِ الْمُخَاطَبِ إِذَا حَكَى كَلَامَهُ لَذَلِكَ الْمُخَاطَبِ ⁽²⁾.

الإجمال بالشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ﴾ و﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ﴾:
و﴿مَّا﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَّا أَصَابَكَ﴾ هِيَ الشَّرْطِيَّةُ، وَ﴿أَصَابَكَ﴾ بِمَعْنَى يُصِيبُكَ، وَالْجَوَابُ ﴿فَمِنْ اللَّهِ﴾، وَلَا يَحْسُنُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى (الَّذِي)؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْمَصِيبُ لَهُمْ مَاضِيًا مُخَصَّصًا، وَالْمَعْنَى عَلَى الْعُمومِ، وَالشَّرْطُ أَشْبَهَ، وَالتَّقْدِيرُ: فَمِنْ اللَّهِ ⁽³⁾، وَالْفَاءُ دَلَّتْ عَلَى مَحْذُوفِ تَقْدِيرِهِ: فَإِصَابَتِكَ مِنَ اللَّهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أَي: كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ النُّعْمَةِ وَالْبَلِيَّةِ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى، خَلْقًا وَإِجَادًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ مَدْخَلٌ فِي وَقُوعِ شَيْءٍ مِنْهُمَا بَوَاجِهُ مِنَ الْوُجُوهِ كَمَا تَزْعُمُونَ؛ بَلْ وَقُوعُ الْأَوَّلَى مِنْهُ تَعَالَى بِالذَّاتِ تَفْضُلًا، وَوُقُوعُ الثَّانِيَةِ بِوَاسِطَةِ ذُنُوبِ مَنْ ابْتَلَى بِهَا عَقُوبَةً، وَهَذَا الْجَوَابُ الْمُجْمَلُ مِنْهُ ﷺ فِي مَعْنَى مَا قِيلَ رَدًّا عَلَى أَسْلَافِهِمْ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 131]، أَي: إِنَّمَا سَبَبُ خَيْرِهِمْ وَشَرِّهِمْ، أَوْ سَبَبُ إِصَابَةِ السَّيِّئَةِ الَّتِي هِيَ ذُنُوبُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، لَا عِنْدَ غَيْرِهِ، حَتَّى يُسَنِّدُوهَا إِلَيْهِ وَيَطَّيِّرُوا بِهِ ⁽⁴⁾.

ما أصاب من
نعمة أو بليّة
فمن الله لا من
سواه

(1) وهو قول ابن عباس ﷺ، ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 5/174، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 3/1008.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/130.

(3) العكبري، التبيان: 1/188.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/740.

تعلّق فعل الإصابة بالحسنة والسيئة، في الآية الكريمة:

لقد تعلّق مفهوم فعل الإصابة، بالحسنة والسيئة؛ ذلك أنّ المراد بهما هنا ما تعارفه العرب من قبل اصطلاح الشريعة، بما هو فعل مُلائم وفعل مُنفر، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ أَحْسَنُهَا قَالُوا لَنَا هَذَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: 131]، والإصابة: حصول حال أو ذات في ذات، يُقال: أصابه مرض، وأصابته نعمة، وأصابه سهم، وهي مُشتقة من اسم الصوب الذي هو المطر؛ ولذلك كان ما يتصرّف من الإصابة مُشعرًا بحصول أمر مُفاجيء أو قاهر، وجيء في حكاية قولهم: ﴿يَقُولُوا هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، و﴿يَقُولُوا هَذَا مِنْ عِنْدِكَ﴾ بكلمة (عند)؛ للدلالة على قوّة نسبة الحسنة إلى الله، ونسبة السيئة للنبي ﷺ؛ أي: قالوا ما يُفيد جزمهم بذلك الانتساب، ولما أمر الله رسوله ﷺ أن يُجيبهم، قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾؛ مُشاكلةً لقولهم، وإعرابًا عن التقدير الأزلي عند الله، أمّا الحسنة والسيئة بالاصطلاح الشرعي، وهو يعني ما يتعلّق بالفعل المُثاب عليه والفعل المُعاقب عليه، فلا محمل لهما هنا؛ إذ لا يكونان إصابتين، ولا تُعرف إصابتهما؛ لأنهما اعتباران شرعيّان⁽¹⁾، وجاء الخطاب في فعل الإصابتين للحسنة والسيئة لرسول الله ﷺ، لا لبيان حاله ﷺ؛ بل لبيان حال الكفرة بطريق التصوير، ولعلّ ذلك لإظهار كمال السُخط والغضب عليهم، والإشعار بأنهم لفرط جهلهم وبلاذتهم بمعزلٍ عن استحقاق الخطاب، ولا سيّما بمثل هذه الحكمة الأنيفة⁽²⁾.

فعل المثارة، وأثره في توضيح المعنى، في قوله: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾:

قوله: ﴿لَا يَكَادُونَ﴾ يجوز أن يكون جاريًا على نظائره من اعتبار القلب، أي: يكادون لا يفقهون، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَبَّحُوهَا وَمَا

لفظ الإصابة
بيان لحال
الكفرة، وإظهار
لكمال السُخط
والغضب عليهم

إفادة نظم
السّياق للمبالغة
في ذمّ اليهود
والمنافين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 134 - 5/130.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/742.

كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ [البقرة: 71]، فيكون فيه استباقاً عليهم في المذمة، ويجوز أن يكون على أصل وضع التركيب، أي: لا يُقَارِبُونَ فَهَمَ الحديث الذي لا يَعْقِلُهُ إِلَّا الْفُطْنَاءُ، فيكون أشدَّ في المذمة⁽¹⁾، وقوله: **﴿لَا يَكَادُونَ﴾** حال. واللَّامُ في قوله: **﴿فَمَالٍ﴾** ليست مَوْضِع وقْفٍ، وهي في التَّحْقِيقِ مُتَّصِلَةٌ بـ **﴿هَؤُلَاءِ﴾**، وهي خبرُ المبتدأ⁽²⁾، وتكرير لفظ **﴿حَدِيثًا﴾** قد يفيد التَّعْمِيمَ، أي: لا يفقهون أي نوع من الحديث مهما كان.

❁ الفروق العجمية:

الإدراك واللاحق:

يقال: تدارك القوم، أي تلاحقوا، أي لحق آخرهم أولهم. ومنه قوله تعالى: **﴿حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾** [الأعراف: 38]، وأصله تداركوا⁽³⁾، وأمَّا اللَّحَاقُ فهو بمعنى الإدراك، يُقَالُ: لَحِقْتُه، وَلَحِقْتُ بِهِ: أدركته، قال تعالى: **﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾** [الجمعة: 3]. ويُقَالُ: أَلَحَقْتُ كَذَا، وَأَلَحَقَهُ بِمَعْنَى لَحِقَهُ⁽⁴⁾، وألحقه أيضا، بمعنى لحقه. وفي الدعاء: " (إِنَّ عَذَابَكَ بِالْكَفَّارِ مُلْحِقٌ)، بكسر الحاء، أي لا حق، والفتح أيضا صواب⁽⁵⁾، وممَّا سبق من بيان دَرَكَ الشَّيْءِ، بأنه اللَّحَاقُ بِهِ، والوصولُ إليه، بحيثُ يبلُغُه ولا يَفُوتُه - أدركنا دَقَّةَ المعنى في استخدام البيان الإلهي، لكلمة **﴿يُذَرِّكُكُمْ﴾** بدل (يَلْحَقُكُمْ).

البروج المشيدة، والقصور البنيّة:

سبق في معنى البروج المشيدة، أنها الحصون والقصور البارزة الظاهرة، المرفوعة البناء المطوّلة في إشادتها⁽⁶⁾، وفي لسان العرب: "قال الفراء: اختلفوا في البروج، فقالوا: هي النّجوم، وقالوا: هي البروج المعروفة اثنا عشر برجاً، وقالوا: هي القصور في السماء"⁽⁷⁾، قال الكفوي: "كلّ ما في القرآن من ذكر البروج، فهو الكواكب إلّا **﴿وَلَوْ كُنْتُمْ**

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/133.

(2) العكبري، التبيان: 1/188.

(3) الجوهري، الصحاح: (درك).

(4) الرّاغب، المفردات: (لحق).

(5) الجوهري، الصحاح: (لحق).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برج) - (شيد).

(7) ابن منظور، لسان العرب: (برج).

في بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ، فإن المراد بها القصور الطوال الحصينة⁽¹⁾، وعبارة ﴿بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ أثر في هذا السياق القرآني، وهذه المعاني الدقيقة، لا تعطىها عبارة (قصور مبنية).

(تصبيهم) و(تمسهم):

وأما المسُّ: فهو أقلُّ تمكُّناً من الإصابة، وكأنَّه أقلُّ درجاتها⁽²⁾؛ ولذلك كانت أوقع أثراً في سياق النصِّ القرآني، وهو يُحدثنا عن أولئك الذين إن تمكَّنتِ الحسنة منهم، أو حلتْ بهم المصيبة، يتحرِّفون عن المقصد الأساس في عقيدتهم الصحيحة بالله، فمن آمن بالله حقَّ الإيمان لا يُحيلُ الحسنة إليه، ويصرفُ السيئة لرسوله ﷺ؛ لأنَّ الإيمان برسول الله ﷺ إيمان بالله، والإساءة لرسول الله ﷺ إساءةٌ لله ﷻ؛ ولذلك أردف بيانُ الله؛ فقال ﷻ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

(يفقهون) و(يعلمون):

وأما العلم فهو من عِلِمَ الشيءَ يَعْلَمُهُ علماً: عَرَفَهُ، وهو اعتقاد الشيء على ما هو به على سبيل الثقة، كان ذلك بعد لبسٍ أم لا⁽³⁾، وأولئك الذين انحرفت وجهتهم عن العقيدة السليمة في حقيقة قضاء الله وقدره، حتَّى قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، كان من الأجدر أن يُناسب هذا السياق إجراء الفعل ﴿يَفْقَهُونَ﴾ مُصَدِّراً بالنفي، الذي يدلُّ على عدم علمهم بشريعة الله، وخاصةً في قضيةٍ عقديةٍ مرتبطةٍ بركن من أركان الإيمان؛ وهي الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره. فهي ليست مجرد علمٍ قد يأتي بعد لبسٍ أو عدمه؛ بل بأمر مهمٍّ يحتاج إلى إدراك عميق، وفقه دقيق.

(1) الكفوي، الكليات: (برج).

(2) ابن النبر، الانتصاف: 459، والفيروزآبادي، القاموس: (مسس).

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 371، والفيروزآبادي، القاموس: (علم).

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 7، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-798-59-0

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 7: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي: 978-9948-798-59-0

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»